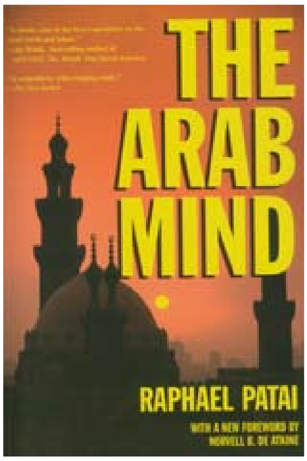

العقل العربي 72

تأليف: رافائيل باتاي

ترجمة: علي الحارس

الفصل السادس عشر
التحليل النفسي للتغريب

9. العرب والأتراك

عند مناقشة الحوافز النفسية لكراهية العرب للغرب، يبرز سؤال أخير: لماذا يختص العرب بكراهيتهم الغرب دون أن يوجهوها إلى تركيا؟ فرغم كل ما يقال، كانت البلاد العربية عرضة للغزو والهيمنة الأوروبية لقرن واحد تقريبا، بينما حكم الأتراك هذه البلاد لأربعة قرون؛ وفضلا عن ذلك، كان النير التركي أثقل في عنق العربي مقارنة بمثيله الذي فرضته القوى الاستعمارية الأوروبية. فعلى الصعيد الاقتصادي، استنزف الأتراك البلاد العربية بشراهة، وكانوا يعتبرون الرعايا العرب مواطنين لا دور لهم في الحياة سوى دفع الضرائب الباهظة والخدمة العسكرية في جيوش الامبراطورية العثمانية التي يقودها ضباط أتراك؛ ومقابل ذلك كان العرب يحصلون على معاملة تزدريهم وتجور عليهم وتطبق العقوبات الوحشية بحقهم. ومع ذلك، عندما ينظر العرب إلى تلك الفترة فإن ذكرى القرون الأربعة الطويلة من الحكم التركي المتوحش لا تثير في العرب إلا القليل من البغض والكره مقارنة بذكرى القرن الوحيد للهيمنة الأوروبية الذي كان، حين المقارنة، إنسانيا ومتنوّرا.

لا شك في أن أحد أسباب هذه الظاهرة يكمن في الهوية الدينية التي تجمع الأتراك والعرب. فالسلطان التركي لم يكن مجرد الحاكم الدنيوي للامبراطورية العثمانية، وإنما كان الخليفة أيضا، أي أنه الحاكم الديني للإسلام السنّي. وشاء العرب أم لم يشاؤوا رؤية الخلافة في قبضة ملك تركي، فإنه يبقى خليفة في نظرهم مع ذلك، أي أنه الوريث الشرعي للنبي محمد الذي تجب طاعته.[1] ومهما كانت الانتهاكات والممارسات الوحشية التي

1) ساطع الحصري: المحاضرة الافتتاحية (ألقيت في افتتاح معهد الدراسات العربية العليا في القاهرة عام 1954)؛ ص13.

www.iraqfuture.net شبكة عراق المستقبل

كافة الحقوق محفوظة لموقع شبكة عراق المستقبل©

الفصل السادس عشر: التحليل النفسي للتغريب

اقترفها مسؤولو الحكومة والجيش التركي تجاه العرب. فإن السلطان/الخليفة باعتباره رمزا للإسلام لم يكن من الممكن تحميله المسؤولية عن ذلك. ولم يحدث ذلك أصلا. كما عنى ذلك أيضا أن الكراهية التي شعر بها العرب تجاه زبانية الأتراك. من أمثال أحمد باشا الجزار الذي حكم سوريا ولبنان سنوات طويلة. لم تكن في الأعم تطال الأتراك جميعهم. وعلى الرغم من أن اسم (الجزار) الذي مات عام 1804 لا يزال «مرادفا للرعب والوحشية»،[1] فإن كراهية الأتراك عموما أصبحت شيئا من الماضي. وإن كانت شديدة خلال حكمهم السيئ للبلاد العربية.

وفي مقابل هذا. كانت القوى الأوروبية مسيحية. وكان المسيحيون في نظر العرب كتلة بشرية لا ملامح لها تشكل العدو الكافر. وبحسب العقل الفطري الذي كان مهيمنا في «دار الإسلام» كان العالم المسيحي شيئا واحدا. بل إن كل طائفة من طوائف المسيحية كانت تعد ممثلا نمطيا لكل «الفرنجة» أي المسيحيين. إن كون المسيحيين الشعب الذي نجح بدءا من القرن التاسع عشر في تنصيب نفسه سيدا على العرب هو الذي جعل من المستحيل على العرب أن لا يعمموا عداءهم ويجعلوا كل العالم المسيحي، أو الغرب بأجمعه، قبلة لبغضهم وكراهيتهم. وكان كل تصرف فردي عنيف، وكل ظلم خاص، خياليا كان أم حقيقيا، يعتبر بمثابة تعبير عن موقف الغرب المسيحي ويضاف إلى العوامل المهيجة لموقف العرب من الغرب.

وثمة نقطة أخرى هي التجارب التاريخية المختلفة التي عاشها العرب تحت ظل كل من الأتراك والغرب. فمن قوانين علم النفس أن الناس ينمون حس كراهية أكبر تجاه من كانوا تابعين لهم في السابق ثم أصبحوا متقدمين عليهم مقارنة بمن تفوقوا عليهم عند اللحظة الأولى للمواجهة. وبتطبيق هذا القانون على العرب نجد أن الأتراك ينتمون إلى الجهة الثانية، وينتمي الغرب إلى الأولى. ومنذ أن أسس الأتراك العثمانيون حكمهم في الأناضول (بعد عام 1300) كانت المواجهات العربية التركية تتمخض عن هزيمة العرب

1) فيليب حتي: تاريخ العرب؛ ص733.

www.iraqfuture.net شبكة عراق المستقبل
كافة الحقوق محفوظة لموقع شبكة عراق المستقبل©

الفصل السادس عشر: التحليل النفسي للتغريب

وانتصار الأتراك. وبعد فترة قصيرة من التنافس غير المحسوم عبر مناوشات حدودية متكررة بين سلطان الأتراك وسلطان مصر في نهاية القرن الخامس عشر وبداية القرن السادس عشر. فتح الأتراك سوريا عام 1516 وأتبعوها بمصر في العام الذي تلاه. وطيلة فترة امتدت أكثر من ثلاثة قرون حتى نهوض القوى الاستعمارية الأوروبية، كان الأتراك في نظر العرب أبطال الإسلام الذين لا يهزمون، والذين كانوا بحق ثقيلي الوطء بأقدامهم على أعناق العرب، وبسيوفهم على أعناق المسيحيين. ومثل هذا الحاكم قد يبغضه العربي وربما يثور عليه، لكنه حتماً لن يكرهه بنفس الشدة التي يكره بها المسيحي الكافر.

كانت محصلة المواجهات الأولى بين المسيحيين والعرب تنتهي عادة بهزيمة المسيحيين؛ مما ولّد شعوراً بالسيادة لدى العرب، رافقه شعور ثانوي بازدراء المسيحيين. وعندما فتح العرب بلاداً يحكمها المسيحيون، وسمحوا لبقاياهم بالعيش مع المسلمين باعتبارهم من «أهل الذمة» أي مواطنين من الدرجة الثانية تحت حمايتهم، فإن ذلك الازدراء تحول إلى احتقار. ومرت قرون لم تكن خلالها أية قوة مسيحية في مستوى قوة العرب المسلمين، وأصبحت حدود التوسع العربي ترسمها العوائق الطبيعية لا الجيوش المسيحية. لكن عندما انعكست الموجة وانحسر التوسع العربي تدريجياً أمام أوروبا المسيحية، وبالأخص منذ عام 1798 حينما أخذت أوروبا المسيحية تشق طريقها في البلاد العربية، تحول الازدراء المتعجرف الذي عامل به العرب «الروم» إلى غضب عاجز، ليكون في النهاية على هيئة كره مستحكم.

نتج عن ذلك مثال تقليدي عن كراهية الجماعة التي يغذيها التحول التاريخي في موازين القوى. وما لا يمكن أن يغتفر ليس حقيقة حصول الند الأجنبي على موقع من له الكلمة الأولى، وإنما أن الظروف مكّنته من أن يكون كذلك بعد فترة طويلة كان فيها مجبراً على أن يكون في منزلة الخاسر. ولا يمكن مصادفة حادثة تبادل أدوار في التاريخ قابلة للمقارنة مع ما حدث بين العرب والغرب.

www.iraqfuture.net شبكة عراق المستقبل
كافة الحقوق محفوظة لموقع شبكة عراق المستقبل©